قصة إتلاف كتابي

منذر مصري

قد تبدو وكأنّها قصّة قديمة، ولكنّها بالنسبة إليّ لن تكون يومًا كذلك.

الكتاب يُعرف من عنوانه

كان **داكن** هو عنوانَ مجموعتي الشعريّة الخاصّة الثانية، التي تقدّمتُ بها إلى وزارة الثقافة. ومنذ البداية، كانت هناك ملاحظاتٌ غيرُ مباشرة تنمّ عن عدم ارتياحهم للعنوان. فالوزارة السوريّة هيئة رسميّة، وليس من المفترض أن تَطْبع كتبًا لها هذا النوعُ من العناوين. وبحسب معرفتي المحدودة، فإنّ فراس سليمان عندما تقدّم إليها بمجموعته **أحزان مشبوهة** طَلَبوا منه أن يبدّل العنوانَ، وفعلاً صدرت المجموعةُ عن الوزارة ولكنْ بعنوان **رصيف**، علمًا بأنّها كانت قد رُفضتْ سابقًا من قِبل اتّحاد الكتاب، وبتقرير أتيح لي أن أقرأه، يكيل لصاحبها اتهاماتٍ، لو كانت صحيحةً، لكان فراس أهمّ شاعر عربيّ حيّ، ولكنّه يستحقّ الشنقَ من دون محاكمة في الوقت ذاته! وقد وَسَّعَ التقريرُ نطاقَ اتهاماته، فوَجَّه إليّ، أنا مقدِّمَ المجموعة، أفظَعَها. فأنا أَذْكر أنّ التقرير في بداية إشارته إليّ يقول: «وهناك مخلوق آخر كَتَب له المقدّمة...» أيْ أنّه لم يستطع تحديدَ أيِّ نوعٍ من خلائق اللّه أنا، بعد أن رَفَضَ اعتباري بشرًا كما يبدو. ولكنْ، بالنسبة إليّ، لم يكن تبديلُ عنوان **داكن** ممكنًا، إذ إنّ كلَّ ما جمعتُه من قصائد تنضوي تحته. إضافةً إلى أنّني كنتُ قد قدّمتُ للمجموعة بثمانٍ وأربعين صفحة تدور كلّها حول مَنْ .. ماذا.. كيف.. **داكن**؟

أحدُ شعراء وزارة الثقافة، أنا!

أَعْترفُ بأنّي إذا عُرِفْتُ شاعرًا فإنّ لوزارة الثقافة السوريّة وللعاملين بها دورًا في هذا. فكتابي الأول **بشر وتواريخ وأمكنة** صَدَر عنها عامَ ١٩٧٩؛ والمجموعةُ المشتركةُ التي أعددتُها من شعر أختي مرام مصري وصديقي محمد سيدة، وعنوانُها **أَنْذرتُك بحمامة بيضاء**، صدرتْ أيضًا عن الوزارة عام ١٩٨٤. وبدا أنّ كلَّ ما سوف أَتقدّم به سوف توافِقُ عليه وتَنْشره. فلقد كنتُ، على نحوٍ ما، محسوبًا عليها، أسوةً بالعديد من الشعراء والقاصّين والمثقفين اليساريّين ـ بالمفهوم الواسع للكلمة ـ الذين ساهمت الوزارةُ في نشر أعمالهم، وقامت بتوظيف عددٍ لا بأس به منهم، مثل حنّا مينة والراحِلين سعيد حورانيّة وسعيد مراد وسعد اللّه ونوس، وكذلك ميشيل كيلو ومحمد كامل الخطيب، وحتى نزيه أبو عَفَش، وغيرُهم الكثيرون. حتى إنّه عندما وَقَّعَ المثقفون السوريُّون على بيان يحتجّون فيه على مشاركة القوات السوريّة في الائتلاف الدوليّ في الحرب ضدّ العراق، اتّصل وزيرُ الإعلام حينها السيّد محمد سلمان بالوزارة هاتفيّاً وقال لها: «لمّي كلابك!» وقد أخبرني صديقي بذلك.

ديواني هذا سُمح، ثم مُنع، مع أنني قبضتُ حقوقه

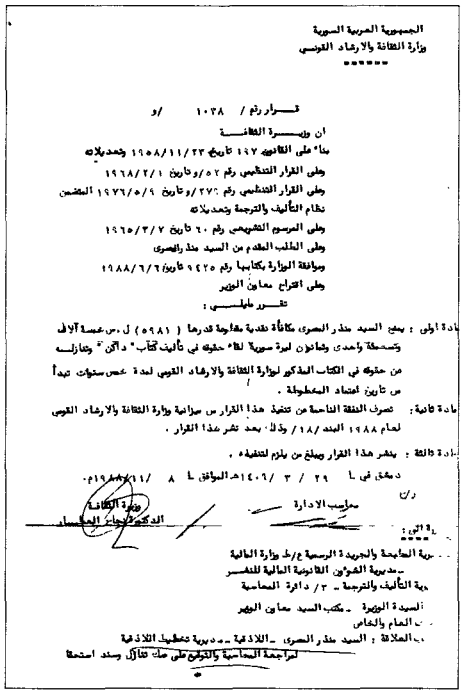

الجمهورية العربية السورية
وزارة الثقافة والارشاد القومي

قـــرار رقم / ١٠٣٨ /و

ان وزيـــرة الثقافـــة

بناءً على القانون ١٩٧ تاريخ ١٩٥٨/١١/٢٣ وتعديلاته
وعلى القرار التنظيمي رقم ٥٢/وتاريخ ١٩٦٨/٢/١
وعلى القرار التنظيمي رقم ٢٧٦/وتاريخ ١٩٧٦/٥/٩ المتضمن نظام التأليف والترجمة وتعديلاته
وعلى المرسوم التشريعي رقم ٦٠ تاريخ ١٩٦٥/٣/٧
وعلى الطلب المقدم من السيد منذر المصرى
وموافقة الوزارة بكتابها رقم ٩٤٢٥ تاريخ ١٩٨٨/٦/٦
وعلى اقتراح معاون الوزير

تقـــرر مايلـــي :

مادة اولى : يمنح السيد منذر المصرى مكافأة نقدية مقطوعة قدرها (٥٩٨١) ل.س خمسة آلاف وتسعمئة واحدى وثمانون ليرة سورية لقاء حقوقه في تأليف كتاب " داكن " وتنازله من حقوقه في الكتاب المذكور لوزارة الثقافة والارشاد القومي لمدة خمس سنوات تبدأ من تاريخ اعتماد المخطوطة .

مادة ثانية : تصرف النفقة الناجمة من تنفيذ هذا القرار من ميزانية وزارة الثقافة والارشاد القومي لعام ١٩٨٨ البند /١٨/ وذلك بعد نشر هذا القرار .

مادة ثالثة : ينشر هذا القرار ويبلغ من يلزم لتنفيذه .

دمشق في ٢٩ / ٣ / ١٤٠٩هـ الموافق لـ ٨ /١١/ ١٩٨٨م

محاسب الادارة — وزيرة الثقافة — الدكتورة نجاح العطار

... الطباعة والجريدة الرسمية ع/ط وزارة المالية
- مديرية الشؤون القانونية المالية للتفسير
... ية التأليف والترجمة - ٣/ دائرة المحاسبة
السيدة الوزيرة - مكتب السيد معاون الوزير
... العام والخاص
... العلاقة : السيد منذر المصرى - اللاذقية - مديرية تخطيط اللاذقية
لمراجعة المحاسبة والتوقيع على صك تنازل وسند استحقاق

الموافقة السريعة على المجموعة

تمت الموافقة على الكتاب بعد فترة قصيرة من إيداعي إيّاه، وذلك بالقـــرار رقم ١٠٣٨ وتاريخ ١٩٨٨/١١/٨، وبتوقيع من السيّدة الوزيرة الدكتورة نجاح العطّار، ومن دون طلب تبديل العنوان أو مراجعةِ أو حذفِ أيّ شيء. بل إنّ الكتاب حظي بإطراءٍ لن أنساه من قِبل الأستاذ أنطون مقدسي، مدير مديريّة التأليف والترجمة آنذاك؛ وقد علّقت السيّدة ندى (إذا كانت ذاكرتي تَخْدمني جيّدًا)، وكانت تَعْمل ربّما مساعدةً له، بأنّها لم تسمعْ أبدًا الأستاذ أنطون يَمْدح أحدًا إلى ذلك الحدّ. وقد تبيّن لي أنّ مَنْ كُلِّف بقراءة المخطوطة وإبداءِ رأيه فيها لم يكن غير صديقي محمّد كامل الخطيب، وهو مَنْ كتبتُ على النسخة التي قدَّمتُها إليه من **بشر وتواريخ وأمكنة** كلمةً واحدةً فقط : كتابُكَ. وقد صَدَرَ قرارُ الموافقة، بلا ريب، بناءً على مطالعة محمد، وربّما على مطالعته وحدها، وأرْسل إليّ رسالةً يُخْبرني مسبّقًا بذلك، مع الإشارة ـ بصيغة الجمع ـ إلى «أنّهم يَأْملون» ألاّ تكون الفترةُ الزمنيّةُ التي تَفْصل بين **داكن** وكتابي التالي طويلةً طولَ الفترة بين **داكن** و**بشر وتواريخ وأمكنة**. كما استأذنني بنشر بضع قصائد («أَبَحْنا لأنفسنا أن نَقْتطف من ديوانكَ») في مجلة ثقافيّة محترمة على حدّ تعبيره، هي مجلة **دراسات اشتراكيّة** التي تَصْدر عن أحد الأحزاب الشيوعيّة السوريّة، وكان يُسْهم بفاعليّة في تحريرها.

توقُّف صدور الكتاب

قَبضتُ مكافأةَ الكِتاب، وكان قدرُها ٥٩٨١ ليرة سوريّة، مباشرةً بعد صدور القرار. وكان المبلغ في ذلك الوقت، بالنسبة إلى كُتُب الشعر، يُحدَّد بعدد الكلمات، وأظنّ أنّ المقدِّمة المسهَبة كانت السببَ في علوّ هذه المكافأة، علمًا أنّ مكافأة مجموعة **أنذرتُك بحمامة بيضاء** كانت ١٢٢٣ ليرة سوريّة وُزّعتْ علينا نحن الثلاثةَ، أيْ ما يقل عن ٤١٠ ليرة سوريّة لكلٍّ منّا. ثم سريعًا أيضًا أُرسلتْ إليّ تجاربُ الطباعة، فقمتُ بتصحيح الأخطاء المطبعيّة التي كانت قليلةً على غير العادة. كما صَمَّمتُ غلافًا خاصّاً بمجموعتي، على نحوِ ما فعلتُ بغلافيْ كتابيّ السابقيْن، لكنّه كان مخالفًا للغلاف الموحّد السيِّئ ـ كما الغالبيّة العظمى من أغلفة كتب الوزارة ـ لسلسلة «من الشعر العربيّ»؛ فقمتُ بتعديل الغلاف على نحوٍ يلائم غلافَ السلسلة. وهكذا بات كلُّ شيء جاهزًا، وكلُّ ما كان عليّ أنْ أفعله هو أن أَنْتظر صدورَه. وبالفعل أُخبرتُ بأنّ الكِتاب قد أُنجز تمامًا وسيَصْدر بعد أيّام معدودة. لكنّ هذه الأيّام المعدودة امتدّت أسبوعًا وأسبوعين، فشعرتُ أنّ شيئًا على ما لا يرام يَحْدث. وعندما اتّصلتُ بالوزارة أخبرني الأستاذ علي الخش (الذي لا أَعْلم أيَّ شيء عنه الآن وأرجو أن يكون في أفضل حال) أنّ هناك مشكلة، مشكلةً كبيرةً وصغيرةً، سببُها «العاري،» مستخدمًا بطرافته المصطلحَ التشكيليَّ المعروف! فما كان منّي إلاّ أن حملتُ نفسي إلى الوزارة لأقابل الأستاذ أنطون مقدسي، الذي لم يُخفِ عليّ أنّ أحدًا ما أَطْلعَ الوزيرةَ على قصيدة «ساقا الشهوة» التي تتضمّنْتُها المجموعة، الأمرُ الذي أَحْرَج الوزيرة... خاصةً أنّ الظّرف الاجتماعيّ، والمدَّ الدينيّ، إضافةً إلى العنوان، لم تكن «مناسبة.» فكان الاتّفاق أن تُعاد المخطوطةُ إليّ، لأحاول ما أَسْتطيعه في هذا الصدد.

شاعر مهووس جنسياً

وبالفعل أُرسلتْ لي مخطوطتي وقد وُضعتْ، إضافةً إلى إرشادات الطباعة، تحت العديد العديد من سطورها وكلماتها خطوطٌ حمراءُ. كان أيُّ شيء يشير، أو يوحي، من قريب أو بعيد، بالغريزة أو بأحد الأعضاء

الجنسيّة أو غير الجنسيّة، مؤشّرًا تحته بخطٍّ. فمثلاً كانت هناك خطوطٌ تحت: «ثعبان أسود قصير،» و«عتمة ما بين فخذيْها،» و«بساقيْن ذابلتيْن وشهوة فجّة،» و«ما أَعُوم به من رغوة دبقة،» و«ليتضاجعوا سرّاً،» وتقريبًا تحت كلّ سطور القصائد الثلاث التي تشكّل «ساقا الشهوة» على نحوٍ يبدو معه وكأنّهم أَوْصوا مَنْ كلّفوه بمراجعة الكتاب بأن يَنْظر إلى النصوص نظرةَ مهووس جنسيّ!

كانت الإشارات، إذن، تَطُول الجزءَ الأكبرَ من المجموعة. ومع ذلك أعددتُ دفاعًا تكتيكيّاً يائسًا لإنقاذِ ما يمكن إنقاذُه، فعدّلتُ بعضَ التعابير فقلتُ مثلاً: «ليتلامسوا سرّاً» بدلاً من «ليتضاجعوا سرّاً،» وحَذفتُ بعضَ الأوصاف. وفي المقابل أَصْررتُ على بعض الأشياء، وشرحتُ أنّها لا يمكن أن تَعْني شيئًا جنسيّاً لأيّ إنسان. وبعد أن بيّنتُ مرامي قصيدة «ساقا الشهوة» وقلتُ إنّ حذفَها يُشْبه عمليةَ خَصْيٍ للكِتاب، قَبلتُ بالحذف. وحتى العنوان الذي أكّدتُ عليه، وذُكِر في قرار الموافقة، قَبلتُ أن أبدّله بعنوان آخر يعبِّر عن سقمي من كلّ هذا، واقترحتُ: **سمِّه ما شئتَ**.

حُكْم مُبْرم غيرُ قابل للطعن

كان واضحًا لي أنّ الحُكْم قد صَدَرَ: قاطعًا، ومبرمًا، وغيرَ قابل للطعن ولا التخفيف. ولكنْ كان عليّ أن ألعب دوري كضحيّة حتى النهاية. فالحقيقة أنّه لا يُمْكن التعديلُ أو الحذفُ في كتابٍ طُبع وأُنْجز بالكامل، فما بالُكَ بكلمة هنا وكلمة هناك وفقراتٍ وقصائد؟ وما بالُكَ بغلافٍ لا بدّ من تغييره هو أيضًا في حال تغيير العنوان؟! قال لي الأستاذ أنطون إنّه ليس من الجيّد حذفُ أيِّ شيء من المجموعة، وإنّ من الأفضل لي أن أَطْبعه كاملاً في مكان آخر. ووعدني بإعطائي نسخةً مطبوعةً من الكتاب. أمّا محمد كامل الخطيب فقد كان إيجابيّاً بالمقارنة مع موقف الأستاذ أنطون، الذي لم أَشْعر أنّ لديه أيَّ رغبة ظاهرة أو خفيّة في مساندتي، لا كمنذر مصري بالذات، بل كحالة تعبِّر كثيرًا أو قليلاً عن قضيّة إبداعيّة وحضاريّة. لقد كان محمد مستثارًا كما لم أَعْهدْه من قبل، وأَخْبرني أنّ مَنْعَ الكتاب بعد قرار الموافقة عليه وطبعِه لا سابقةَ له، وأنّه مستعدّ لتحمّل كامل المسؤوليّة الأدبيّة والقانونيّة في حال صدوره واعتراضِ أحدٍ عليه.

لكنّ الكتاب كان قد صار، وبالسرعة التي تمّت الموافقةُ عليه وعلى طبعه، شيئًا من الماضي. حتّى النسخةُ المطبوعةُ التي طالبتُ بها، بناءً على وعد الأستاذ أنطون مقدسي، لم تعطَ لي. بل أَرْسل لي السيّد زهير الحمو، المديرُ والمشْرفُ الفنيّ لمطبعة وزارة الثقافة، رسالةً يَشْرح فيها أنّ كلّ نسخ الكتاب قد أُتْلفتْ، كما أذيبتْ كلُّ السبائك الرصاصيّة. وقال إنّه يَأْسف لما حصل.

وقد فهمتُ أسفه في بادئ الأمر على أنّه أسفٌ على ما حَدَث للكتاب؛ فقد كنتُ أشعر بمودّة بيننا نَتَجتْ من زيارتي المطبعةَ العديدَ من المرات أثناء إعدادي لأغلفة كتبي. ولكنّي عَرفتُ بعدها، أولاً بواسطة الأصدقاء كالعادة، ثم راح يُذْكر مرارًا في الصحافة السوريّة (**الدومري**، العدد ١، مثلاً)، أنّ السيّدة زوجةَ مدير المطبعة، وكانت تَعْمل بمثابة سكرتيرة للسيدة الوزيرة، قد أَخَذتْ على عاتقها، حرصًا على الأخلاق والآداب العامة، وحرصًا على مصلحة السيّدة الوزيرة في آن معًا، أن تَأخذ الكتابَ إلى الوزيرة وتُطْلعها على قصيدة «ساقا الشهوة» الملعونة.

النجاح أفضلُ انتقام

على أثر هذا أَرْسل لي حنّا مينة ـ وأنا أَذْكر اسمَه كما اعتدتُ بلا أيّ لقب، حبّاً له ـ رسالةً يقول لي فيها ألاّ أبالي: «فمجموعتُكَ الشعريّة تَلْقى إعجابًا طيّبًا من قِبل جميع الأصدقاء والقرّاء. ولكنّ مديريّة التأليف والترجمة متمسّكة بما يُسمّى تحريمَ الجنس في مطبوعاتها؛ وهذا عجيب. حدث [ذلك] مع روايتي **الياطر**، سواء في الوزارة أو الاتّحاد. لكنّ الرواية نُشرتْ بعدئذٍ في دار ميسلون وبموافقة وزارة الإعلام!.. أيْ أنّ الحَجَرَ الذي رفضه البنّاؤون صار رأسَ الزاوية. فتأمّلْ.»

انتقامًا لقصيدة «ساقا الشهوة،» كَتَبتُ لها مقدِّمةً أشدَّ طولاً من مقدّمة المجموعة بأكملها، وطَبَعْتُها باسم صرتُ أُعرفُ به (منذريوس مصريام) على الآلة الكاتبة مع القصيدة على شكل كرّاس صغير، أعددتُ منه ٥٠٠ نسخةً وَزَّعتُها على الأصدقاء، ثم نشرتُها في مجلة **الناقد** العدد ٤٣. لكنّ الرقابةَ مزَّقتْ صفحتَي القصيدة ١٦ و ١٧، ولا أدري لماذا شعرتُ بالسعادة عندما أخبرني صديقٌ بذلك! بعد ذلك ضمّنتُها مجموعتي التي صدرتْ عن دار رياض الريّس للكتب والنشر، **مزهريّة على هيئة قبضة يد**، فسُمح للمجموعة بأن تباع وتُتداولَ في سوريا، من دون اعتراضٍ من أحد.

ولكن..

ليست سوريا البلدَ الذي يَمْنع الكتب! فكُتُبُ الصادق النيهوم، التي مُنعتْ في بلد الحريّات لبنان، سُمح بطبعها وطُبعتْ ووُزِّعتْ في سوريا. ولكنْ لا أحد يَدْري عددَ الكتب التي لم تُطْبع في سوريا بسبب رقابة إحدى الجهات المخوّلة، وأَعْني الإعلام والثقافة أو اتّحاد الكتاب العرب. ذلك أنّ قرارات كهذه لا يَلْزمها دائمًا أن تَصْدر بكتاب ذي رقم وتاريخ، بل تكفي كلمةٌ ما، أو مكالمةٌ هاتفيّةٌ، أو إبداءُ تحفُّظ. ولكنْ كيف يبرَّر ـ إذا كان هذا أمرًا يَحْتاج إلى تبرير ـ صرفُ مكافأةٍ لكِتاب لم يُنشرْ، ولم تُسْتَعدْ لأنّ العقد لا ينصّ على هذا الحقّ؟ وكيف يُمْكن تبريرُ ما أُنفق على طباعة ٢٠٠٠ نسخة، وهي كلفةٌ قد تَبْلغ عشراتِ الآلاف من الليرات السوريّة؟

لقد شكّل منعُ **داكن** أذيّةً حقيقيّةً لبرنامجي في نشرِ مجموعاتي على نحوٍ متسلسل، ولتجربتي برمّتها. وها أنذا، بعد ثلاثة عقود من الكتابة، ليس لديّ سوى كتابين وثلث، كما يَمْزح البعضُ. ولكنّ هذا لا شيء مقارنةً بشعراء عرفتُهم، بعضُهم أفضلُ منّي، كانوا يستطيعون أن يقدّموا وجهًا رائعًا للشعر السوريّ، غير أنّهم حين تَقَدَّموا بأعمالهم إلى وزارة الثقافة وإلى اتّحاد الكتاب لم تَنْعدم الأسبابُ لرفض نشرها.

اللاذقية

منذر مصري

شاعر سوريّ. له عدد من الدواوين، منها: **بشر وتواريخ وأمكنة**، و**داكن** (طبعتْهُ وزارةُ الثقافة السوريّة ثم أَتْلَفَ)، و**مزهريّة على هيئة قبضة يد**. أقام معارض فرديّة عديدة، وشارك في معارض وتظاهرات تشكيليّة جماعيّة.